http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1874) السنة الثامنة - الثلاثاء (10) آب 2010

الرفض في "شعر الهنود الحمر"

الدكتور طالب مهدي الخفاجي

ليست هناك مأساة أكثر عمقاً وسحقاً من مأساة الهنود الحمر، ومأساة عرب فلسطين ، لقد تعرض هذان الشعبان للسحق والإبادة لقلع جذورهما ومحو تاريخهما وثقافتهما والجريمة التي ارتكبت بحق هذين الشعبين واحدة ومن كان وراءها واحد (بريطانيا). تعرض الهنود الحمر للإبادة على يد الرجل الأبيض القادم إليهم مستعمراً وسيداً !!! . وقد قام هذا الرجل الأبيض الغازي المستعمر بمحو كل أثر أو شاهد للهنود الحمر وقطع صلتهم بثقافتهم وتاريخهم .

أن عمق هذه المأساة أنعكس على مرآة الشعر وأصبح جرحاً ينزف ، ويتواصل نزيفه على مر الأيام والسنين والقرون . هذا الجرح العميق جعلهم أكثر التصاقا بوطنهم وتاريخهم وأدبهم ، لهذا رأيناهم يتفننون بأمجادهم السابقة وبرموزهم الوطنية ، وما كتبه شعراؤهم يمثل خلاصة تجاربهم . فقصيدة الشاعر من الهنود الحمر تمثل دخولاً عنيفاً وصادقاً إلى عالم الذاكرة الذي تعرضت إلى الغزو والإبادة . وعلى الرغم من أن هذه القصيدة تتميز بالبساطة والتواضع فأنها غير مباشرة . وهذا هو السبب الذي يعطيها مذاقا صادقا تفوح منه رائحة الأرض والمطر والندى والحب والتاريخ .

لقد تميز شعر الهنود الحمر بخصائص سواء أكان ذلك في أمريكا الشمالية أم الجنوبية . ويمكن أن نشير إلى ثلاث خصائص هي :

١. الميثولوجيا : أن تاريخ الهنود الحمر عميق الصلة بالميثولوجيا التي تعد تراثاً لهم ، وتمتد في عمق التاريخ ، وهي تعكس خيالاً واسعاً يستجيب للظروف الاقتصادية والاجتماعية التي عاشوا فيها . ويستمد شعراؤهم المادة الشعرية من أعماق الميثولوجيا وهذا الموقف لا يعني أن شعرهم عاجز عن اكتشاف الواقع واستشراف آفاق المستقبل ، بل يستمد الشاعر الهندي من الميثولوجيا أو يتكئ إلى الميثولوجيا بقصد التعبير عن واقع شعبه المأساوي .

ويضم شعرهم بين دفتيه عدداً من الأساطير والخرافات ، يمثل محتواها بشكل خاص الايديولوجيا والوعي الاجتماعي لديهم ، وفي ضوء هذا الموقف من الميثولوجيا يمكن أن نشير إلى أن غالبية أعمالهم الأدبية والشعرية تمجد (الشمس) باعتبارها الإله الأعلى . ويعتبرون " أنكا " جدهم وهو ابن الشمس ، كما تمجد أعمال أخرى " فيراكوجا " آلهة الخلق والأرض باعتبارها آلهة الخصب.

إن تصورهم للإيمان يمكن أن نتلمسه في كثيرة من النصوص المحفوظة في النصوص الأسبانية التي تعكس تعدد الآلهة لدى مختلف الأقاليم والقبائل إلى جانب (الشمس) بوصفها الإله الرسمي للجميع . فكانوا يعبدون (الومانيس) أي الجبال ويعتبرونها إلها.

وتنطوي الميثولوجيا الهندية على أقوال كثيرة لعل أكثرها قبولا وتداولا هي أن الميثولوجيا الهندية تذهب إلى أن الإله (انكاري) هو ابن الشمس ومن امرأة متوحشة . والشمس عندهم مذكر كما هو في الإنكليزية والأسبانية والفرنسية .

٢. النوستالجيا : وتعني الحنين الدائم إلى وطن ضائع . هذه الظاهرة ليست جديدة في شعر الهنود الحمر بل هي قديمة وتمتد إلى عمق خمسة قرون وتحديدا إلى نهاية القرن الخامس عشر عندما اكتشف (كولومبس) أمريكا ، وكذلك يرجع تاريخ هذه الظاهرة إلى سيطرة الملك الأسباني (فرانسيسكو بيزار) على مملكة (الأنكا) عام ١٥٣١ .١٥٣٣.

وفي ضوء هذين الحدثين التاريخيين ابتدأت رحلة مأساة الهنود الحمر . ومن ذلك التاريخ كان الهنود الحمر عرضة للإبادة والتشريد ، بل الأنكى قلع جذورهم من الأرض الأمريكية نهائياً وتشويه تارخيهم وتراثهم . وآخر هذه الحملات وأكثرها ظلما ومرارة وقسوة هو وضعهم في مجمعات قائمة على العزل في أمريكا وهذه المجمعات لا تختلف في شكلها ومضمونها عن مجمعات عزل السود في جنوب أفريقيا سابقاً والمسماة (بانتوستانات) .

أن النوستالجيا حقيقة يمكن اعتبارها ردة فعل على معاناتهم ومأساتهم خلال القرون الخمسة المنصرمة على يد الأسبان والأمريكان والأوربيين . وردة الفعل هذه تعد عاملاً أساسياً وكبيراً يدفعهم إلى التماسك الروحي لمجابهة حملات الإبادة والإرهاب التي تشنها قوى القهر الأمريكية ضدهم .

٣. رفض ثقافة الرجل الأبيض التي تحاول إلغاء ثقافة الهنود الحمر وتراثهم ، ذلك أن الرجل الأبيض لم يكتف بمصادرة الأرض وتشريد الهنود الحمر وتغريبهم في أرضهم حسب ، بل دأب أيضاً على استعمارهم ثقافياً ومحاربة تراثهم وثقافتهم بهدف تسهيل مهمة زيادة استغلالهم وتركيبهم . وفي هذه المقالة سنقوم بتحليل نماذج من شعر الهنود الحمر التي تتضح فيها رائحة الأرض والمطر والأنين والحب .

في قصيدة " موت آتاهو ألبا " يتضح موقف الشاعر القائم على التمسك بأرضه ووطنه ، ورفض الرجل الأبيض الذي دخل أمريكا غازيا ومستعمرا . دخل بحجة البحث عن الذهب ، ولكنه في حقيقة الأمر ، دخل يحمل الموت لأصحاب الأرض . كما وصفت القصيدة الرجل الأبيض بأنه غادر غدر الضبع وماكر مكر الثعلب ، فقال :

كالطاعون حل البيض الفلاة / الباحثون عن الذهب / في أرضنا / فهمسوا للأب " أنكا" بالطمأنينة/ ولكنهم قدموا له الموت /بغدر الضبع/ ومكر الثعلب / قتلوه كحيوان " اللاما " الصغير.

وتستمر القصيدة بوصف مأساة هذا الشعب ، فالرجل الأبيض جاء ليستأصل هذا الشعب ويعمل بكل ما يملك لتدميره ومحو تراثه ، ولما كان هدف المستعمر الغازي سلب الأرض ، فهو لا يجيد إلا لغة الموت . لهذا ينتظر حلول الليل ليدفن الشيوخ والشباب ويهرب إزاء هذه الصورة يشكو الشاعر ويفصح عن مرارته ذلك أن الغرباء الغزاة طاعون خيم على وطنه فقال: في السماء تمزق البرق / وسقط البرد / واختفت الشمس/ وحل الليل/ دفن البيض العجائز والشباب/ أنفسهم/ هربا من الخوف/ فكيف لا أشكو/ مرارتي / وأنا أرى / الأغراب في أرضي ؟

ولا يجد الهندي من علاج إلا التماسك والوحدة فهما السبيل الوحيد لتحقيق النصر والتمسك بالأرض وعدم الهروب فقال :

نريد أن نتوحد / نحن الذين تعمدت/ أخوتهم بالدم/ نريد أن نبكي آلامنا.

قوة الشعب الأساسية هي الإيمان بالقضية وبقدرته على المقاومة وسحق الطغاة . والشاعر يذكرنا (بانكا) بوصفه أحد الرموز الوطنية التي تسكن العالم العلوي . سيكون انكا شاهداً على مأساة وظلم الرجل الأبيض ، إلا أن الهندي مع أنه يشعر بالظلم والقهر بيد أنه صامد ويقاوم فلن يموت بل لم يزل حياً فقال : انكا أبي /الذي يسكن العالم العلوي/ستكون/شاهداً على مأساتي/ أفكر في كل هذا/ ولا أموت/ ولم يعد قلبي يسكن في صدري / ولا زلت أحيا.

وفي قصيدة (صورة من الماضي) للشاعر (دافيد مانتنير) الذي يحدثنا عن صورة الماضي الجميلة حين كان هذا الشعب يعيش آمناً ناعم البال في أرضه وبيته الصغير ، ولكن حين حل الرجل الأبيض حول حياته إلى جحيم وزرع الموت في كل شبر من أرضه . ويطلب الشاعر من أبناء شعبه أن يصغوا إلى حديث الكبار الذين علمهم حب الوطن أن الهندي لن يصبح رجلاً أبيض لأن الأبيض غريب طارئ ومستعمر قاتل . وأن هذا الشعب على الرغم من بساطته فهو قوي قادر على الدفاع عن أرضه ووطنه . لهذا فهو لن يموت أبداً فقال : جميلة كانت حياتنا القديمة / ناعمة ودافئة/ وبيوتنا الصغيرة/ تزينها الطبول / وصوتا صافيا يغني/ وصدى ضحكات/ عليك أن تتعلم / الاستماع لكبار السن/ أن تتعلم أنك لن تصبح رجلاً أبيض / فالرجل الأبيض ليس أبانا/ ولن نموت جوعا/ نحن الهنود أقوياء/ غير أن العشب توقف عن النمو/ وخيول الفخر شارفت على نهايتها.

وفي قصيدة الشاعر (رونخ تراك) التي كان عنوانها (رسالة حب هندية) ، نقرأ ونرى الصورة نفسها التي رأيناها في القصائد الماضية ، نقرأ إصرار الهندي على الرفض ، رفض كل ما يتعلق بالرجل الأبيض ، لأنه يسعى إلى قتل وتدمير واقتلاع جذور الشعب الهندي . يخبرها الشاعر على لسان أحد أفراد هذا الشعب الذي. كما قلنا . يتمسك بأرضه ويرفض وجود المستعمر ، فهو يقول عن البيض بأنه لا يعرف من أين جاؤوا ليعلموا الهندي كيف يأكل طعامه ويبني بيته ويزرع حقله ، أنه يرفض كل ذلك يرفض وجودهم وعاداتهم وطبائعهم أنهم كابوس على صدر كل فرد فقال: جاؤا .. لا نعرف من أين / ليعلمونا كيف نأكل طعامنا / كيف نبني بيوتنا / كيف نزرع أرضنا / هل أحدثك أكثر عما فعلوا / القديم لا يساوي شيئاً .

مراجعات

ماتيو ريشي ..الحكيم القادم من الغرب

الإيطالي الذي غزا الامبراطورية بعبقريته

ترجمة: المدى الثقافي

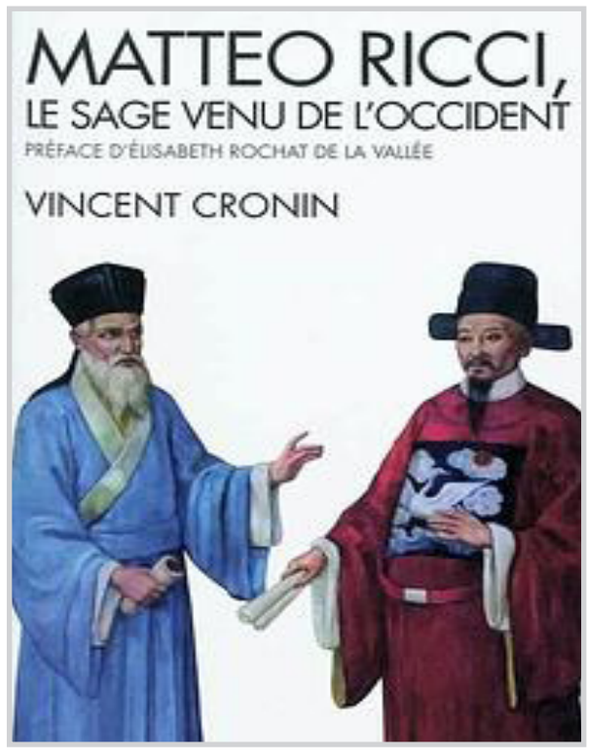

يحاول فانسان كرونان في كتابه الجديد اقتفاء اثر المغامرة الاسطورية لماتيو ريشي –ذلك الايطالي الذي غزا امبراطورية الصين في القرن السادس عشر–فكان اول رجل غربي يقتحم اسوار– المدينة المحظورة –في عصر كان الصينيون فيه يجهلون وجود قارة كبيرة مثل اوروبا ..

ويمكن اعتبار قصة هذا اليسوعي اسطورية لأنها تجسد تاريخ انسان اختار الانتماء الى الآخرين لاحداث تغيير فيهم فكان عليه ان يبدا بفهمهم اولا.

ولد ريشي في ماكيرتا في قلب مارشيز وذلك في عام ١٥٥٢ من عائلة تضم ١٣ طفلا ، وكان الصغير ماتيو تلميذا بالغ الذكاء الى حد النبوغ ، كما كان تقيا ومولعا بالشؤون الروحية وراغبا في تكريس نفسه لخدمة الرب ..ولأنه شديد الحب للاستطلاع وكان ابنا لعصر النهضة الزاخر بالمعارف فقد اختاران ينقل كلام الانجيل الى ماوراء حدود اوروبا التي كان يعرف جيدا انها ليست القارة الوحيدة الموجودة في العالم .. بدءا ، انجذب ريشي الى الرهبان الفرنسيسكانيين وانضم الى سنت فرانسوا ليستمع الى عظاته ولحق به الى اكثر من مكان في مساهما في دعم وتقوية فعالية الكنيسة الكاثوليكية ..

كان ريشي نابغة في الرياضيات وقارئا جيدا لأرسطو كما كان ذا ايمان وفكر عميقين واكثر من ذلك –كان مغامرا بالولادة –وهومادفعه الى ارتياد الهند اولا حيث اكتشف قسوة الاستعمار البرتغالي الذي كان يؤمن بقدرته على ارغام الهندوس والمسلمين على الدخول في الدين المسيحي باستخدام القانون ...

تابع ريشي جولته لينتقل هذه المرة الى الصين التي كانت –على العكس من اليابان – مغلقة ازاء التاثيرات المسيحية وفيها كم من الارتياب من الاجانب ...حرص ريشي على تعلم اللغة الصينية في وقت قياسي وبدا يكتب افكاره ومعتقداته بهذه اللغة فاصطدم ببعض الرهبان البوذيين الذين اصبحوا من اشد خصومه في تلك الفترة لكن ذلك لم يثنه عن التعرف الى (الطاوية) –وهي الفلسفة الدينية المبنية على تعاليم لاوتسو الصيني في القرن السادس قبل ولادة المسيح) ، كما تعاطف مع فكر كونفشيوس –المعلم الروحي للصين الامبريالية ..

لم يفهم الصينيون ريشي في باديء الامر وكان يصعب عليهم ادراك وجود اله واحد لكنه استخدم لغتهم ليقترب منهم وينجح في اجتذاب عدد قليل منهم الى الدين المسيحي ..

واليوم ، لم يعد ريشي مبهما بالنسبة للصينيين كما كان آنذاك بل يعتز به الصينيون ويرون فيه رجلا لم يفد اليهم للسيطرة على افكارهم بل ليتقاسم معهم الكنوز الروحية في الغرب يساعده في ذلك مظهره المريح وذاكرته الخارقة واتقانه لغتهم بسرعة غريبة والتزامه الكامل بتقاليدهم ومراعاته لطقوسهم فضلا عن تبتله وابتعاده عن الاهواء وازدراءه للمجد والسطوة والمسؤوليات الرسمية ...ليس هذا فحسب بل ان سمعته ككيميائي ومذهبه الغامض وكل ماسبق جعلوه رجلا نادرا وفريدا في عيون الصينيين –كما يقول فانسان كرونان في كتابه – الذي صدرمؤخرا عن دار البان ميشيل الفرنسية في ٣٧١ صفحة حملا عنوان (ماتيو ريشي ، الحكيم القادم من الغرب) والذي يرى كرونان ان تاليفه كان ضروريا للغوص في حياة هذا الرائد الذي اختار الدين وسيلة للتحاور بين الشعوب والذي تحتفل الصين هذا العام بمرور ٤٠٠ عام على وفاته.

اقدام في الماء

قصيدة جميلة عن سحر الشواطيء ..

عدوية الهلالي

يرى الكاتب رينيه فاليه ان المرء يصبح شاعرا حين يكون على ساحل البحر ويمارس الصيد اذ يعثر هناك على متع طفولية وسعادة مفقودة ..

لاحد ينكر ان سواحل البحار لها سحرها في الصيف لكن لرينيه فاليه فلسفته الخاصة بهذا الخصوص والتي ضمنها كتابه (اقدام في الماء) الذي يشبه قصيدة غنائية لحلاوة النص وطلاوته وسهولة معانية وسلاسة اسلوبه فهو يقود القاريء الى الشاطيء حيث لباس البحر والأحذية الخفيفة وشبكة الصيد وقصباته وبكراته ..ويسرد كل ذلك عبر نثر جميل تختلط فيه السخرية بالحزن وبعبارات عذبة تذكرنا بروح رامبو فتصبح مثل حمام صيفي منعش للقاريء.

ويرى فاليه ايضا ان الصيد ليس عبثا كما يراه الناس بل هو افضل ذريعة ليتواجد المرء على حافة النهر اوشاطيء البحر او يرتمي في احضان الماء بينما تحيط به النباتات المائية وعندها يختلف احساسه بالاشياء وقد يصبح شاعرا.

يصف فاليه في روايته كيف يستيقظ الصياد قبل الفجر فيشرب قهوته ويهيء الطعم وقصبات الصيد وشباكه ويصبح ملك العالم الذي مايزال يغط في النوم!

بعدها يذهب ليكمن في مواضع الصيد متسلحا بالصبر وكانه ذاهب لمواجهة الحوت الشهير موبي ديك ...وتصبح حالة الانتظار التي يعيشها صياد السمك احيانا ذات سمة ماساوية ..فاذا اخفق في صيد سمكة ناضلت طويلا لتتفادى الوقوع في شبكته فكانه اخفق في حياته كلها اما اذا امسك بسمكة كبيرة فهو يشعر بعذابها ويتالم كلما زاد اختناقها بفعل نقص الهواء الذي تتنفسه بل يشعر بحبه لها رغم انها اصبحت فريسته ...الصياد انسان عاطفي اذن وليس قاتلا بالمعنى المفهوم !! انه يعشق الماء ويشعر احيانا وكان النهر هو زوجته الخصبة والمليئة بالوعود ..يقول فاليه على لسان بطل الرواية :"لم اشعر بالسام ابدا ..لكني ساضجر في تلك اللحظة ..حين لايكون الماء حولي ..انشاي المفضلة ..فلاتداعب برودته ساقي ولااشعر بطهارته ..عندما اشعر بالسعادة وباسمي درجات اللذة ..انها متعة الحياة ."

ويصف فاليه ايضا كيف يشعر الصياد حين يصيد سمكته الاولى فهي تشبه ابنته الاولى ولن ينساها مطلقا ..

الصيد بالنسبة لفاليه هو شيء يكتب عنه ويعيشه معا وعندما تقرا له ستشعرمعه انك ليس على حافة البحر فقط بل على حافة الفردوس وستضحك معه من مغامراته وسترى الجرح في وجنته والذي سببته رمية غير موفقة للصنارة ...انه يشعر بمتع الطفولة وينتشله الماء من اعماق الحزن وتلح عليه فكرة ان الموت سيقتلعه ذات يوم من هذه السعادة الارضية مثل سمكة صغيرة لكنه مازال يتذوق الحياة على اية حال لأنه يدرك انها تجري بسرعة...

صدرت رواية (اقدام في الماء) التي تقع في ١٠٨ صفحة لرينيه فاليه مؤخرا عن دار لوشيرش ميدي الفرنسية للنشر..

قمران في نادي الشعر.. أحدهما أفل والآخر يضيء

المدى الثقافي

يواصل نادي الشعر في اتحاد الادباء الاحتفاء بالشعراء الشباب ،وطبع نتاجاتهم الأدبية ،وقد صدرت مجموعة جديدة بعنوان (قمران ..وليلة) للشاعرين زاهر موسى وعمار عبد الرزاق الذي استشهد في إحد الانفجارات الإرهابية، وقدم الجلسة الشاعر عمر السراي الذي قال: اليوم نحتفي بشاعرين ،هما قمران يشتركان بليلة واحدة ،لذلك فضل الاول ان يأفل ليضيء الثاني وهذه صفة التسامي والوصول الى اسمى الصفات ، عمار عبد الرزاق لم يغادر القاعة ها أنا اراه بين عيونكم يستمع ويكرر ما تقولونه عنه .

بعدها تحدث الناقد بشير حاجم :اني اتماها مع عنوان المجموعة –قمران وليلة – هذه المجموعة هي شعر بصرف النظر انها تنقسم الى قسمين ،قصائد زاهر موسى قصائد نثرية وقصائد عمار عبدالرزاق هي قصائد تفعيلية ،ولابأس ان الخص او اعيد ماقلته سابقا ، ان الشاعر زاهر موسى هو من شعراء الجيل الأخير ممن يكتبون الشعر بكل انواعه ولكنه يحاول ان ينحو الى قصيدة النثر ويعطيها افقا خاصا بها وبصمة واضحة له دون ان تترهل عنده الجملة النثرية اوتسيح من دائرتها المرسومة لها .

اما قصيدة – نبوءة هدهد سليمان – للشهيد الشاعر عمار عبد رزاق الذي قرأها بالنيابة الشاعر علي وجيه ، اهم ما في قصيدة الشعر ان هناك بنيات متواشجة بينها وهي البنية الشعرية والبنية الاسلوبية والبنية اللسانية وأيضاً تتواشج مع هذه البنيات البنية الإيقاعية باعتبارها ان هذه القصيدة هي قصيدة تفعيلة .

بعدها قدمت عدد من المداخلات التي اثرت الجلسة حول المجموعة وتقارب وجهات النظر فيما يخص المجموعة التي جمعت تجربتين فتيتين .